﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾﴾ [الحجّ: 63]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

استمرارٌ في عرضِ دلائلِ قدرةِ العَليِّ الكبير بعد الوعدِ بالرِّزقِ والنَّصرِ للمؤمنين

في مناسبةِ هذه الآيةِ لِما قبلها وجهان؛ **أوَّلُهما**: أنَّه لَمّا ذكَرَ اللهُ تعالى ما دَلَّ على قُدرتِه الباهرةِ من إيلاجِ اللَّيلِ في النَّهارِ والنَّهارِ في اللَّيلِ، وهما أمْرانِ مُشاهَدانِ: مجيءُ الظُّلمةِ والنّورِ؛ ذكَرَ أيضًا ما هو مُشاهَدٌ من العالَمِ العُلويِّ والعالَمِ السُّفليِّ؛ وهو إنزالُ المطرِ واخضرارُ الأرضِ، فهما مَرئيّانِ[1]، **وثانيهما**: أنَّه لَمّا دلَّ ما تضمَّنَهُ رزقُه سبحانه للميِّت في سبيله بقتلٍ أو غيرِه على إحيائِه له، ودلَّ سبحانه على ذلك وعلى أنَّه خيرُ الرّازقين بما له من العَظَمَةِ، وختمَ بوصفَي ﴿ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾؛ أتبعه دليلًا آخرَ على ذلك كلِّه بآيةٍ مُشاهَدةٍ جامعةٍ بين العالَمِ العُلويِّ والسُّفليِّ قاضيةٍ بعُلوِّه وكِبَرِه، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مُخْضَرَّةً﴾: (خضر) أصْلٌ واحِدٌ مُسْتَقيمٌ، ومَحْمولٌ عليهِ، والخُضْرَةُ من الألْوانِ مَعْروفَةٌ، والخَضْراءُ: السَّماءُ، لِلَوْنِها، والخضرة بين السَّوادِ والبياضِ، ولكنَّها إلى السَّوادِ أقرب، ولذلك يُسَمَّى الأسْوَدُ أخْضَرَ، قالَ تعالى في صِفَةِ الجَنَّتَيْنِ: ﴿مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾﴾ [الرَّحمن: 64]، أيْ: سَوْداوانِ، وهذا من الخُضْرَةِ، وذلك أنَّ النَّباتَ النّاعِمَ الرَّيّانَ يُرَى لِشِدَّةِ خُضْرَتِه من بُعْدٍ أسود[3]، ومعنى ﴿مُخْضَرَّةً﴾ في الآية: موافقٌ للمعنى اللُّغويِّ، أي: ذات خُضْرَةٍ بما ينبتُ فيها من النَّبات[4].

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 7/ 531.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 82.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خضر).
(4) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 676، والشوكاني، فتح القدير: 3/ 551.

2) ﴿لَطِيفٌ﴾: (لطف) أصلٌ يدلُّ على رِفْقٍ وعلى صِغَرٍ في الشَّيْءِ، فاللُّطْفُ: الرِّفْقُ في العَمَلِ، يُقالُ: هو لطيفٌ بِعِبادِهِ، أيْ: رَؤوفٌ رَفيقٌ[1]، واللُّطْف واللَّطَف: البِرُّ والتَّكْرمة والتَّحَفّي، وقيل: اللُّطفُ مِنَ اللهِ تَعالَى: التَّوْفيقُ والعِصمة، واللَّطيفُ اسمٌ من أسماءِ اللهِ، وقيل: معناه: الَّذي اجْتَمَعَ لَهُ الرِّفقُ في الفِعْلِ والعلمُ بِدَقائِقِ المَصالِحِ، وإيصالُها إلى مَنْ قَدَّرَها له من خَلْقِهِ[2]، وقيل: الرفيقُ بعبادِهِ حيثُ لمْ يُكلِّفهم إلّا ما يطيقون[3].

3) ﴿خَبِيرٌ﴾: (خبر) أصلٌ يدلُّ على العلم، والخُبْرُ: العِلْمُ بالشَّيْءِ، تَقولُ: لي بِفُلانٍ خِبْرَةٌ وخُبْرٌ، واللّهُ تعالى الخَبيرُ، أي: العالمُ بكلِّ شيْءٍ[4]، وخَبَرْتُ الأمرَ أخْبُرُهُ؛ إذا عَرَفْتَهُ على حَقيقَتِهِ، وقيل: الخُبْر بالضَّمِّ: العِلْمُ بالباطِنِ الخَفيِّ؛ لاحْتياج العِلْم به للاخْتبار، والخِبْرَةُ: العِلْمُ بالظّاهرِ والباطنِ، وقيلَ: بالخَفايا الباطِنة، ويَلْزَمُها مَعْرِفَةُ الأُمورِ الظّاهرة، والخَبيرُ مِنْ أسماءِ اللهِ ﷻ: العالمُ بِما كانَ وما يكونُ، وقيل: العَليمُ ببَواطِنِ الأشْياءِ[5].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

تجديدُ الاستدلالِ إحسانٌ أيَّ إحسانٍ

يقول تعالى: لقد رأيتَ ببَصَرِك، وعَلِمْتَ بِبَصيرتِك - أيُّها المُخاطَبُ - أنَّ اللّهَ أنزلَ من السَّماءِ مَطَرًا، فتُصبحُ الأرضُ مُخضَرَّةً بما يَنبُتُ فيها من النَّباتِ، فإنَّ اللّهَ لَطيفٌ بعبادِهِ، ومن لطفِه استخراجُ النَّباتِ من الأرضِ بذلك الماءِ، وغير ذلك من ابتداعِ ما شاءَ أنْ يبتدعه، خَبيرٌ، ومن خبرتِه أنَّه لا تخفَى عليه الحَبَّةُ التي في باطِنِ الأرضِ، فيَسوقُ إليها الماءَ لتنبُتَ، وخبيرٌ بما يحدثُ عن ذلك النَّبتِ من الحَبِّ[6].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (لطف).
(2) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (لطف).
(3) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: 4/ 24.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خبر).
(5) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (خبر).
(6) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 676.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نكتةُ فصل الآية عن سابقتها:

كلُّ شيءٍ في الكونِ يدلُّ عليهِ، ويُعرِّفُ بنِعَمِه

فَصَلَ البيانُ القرآنيُّ جملةَ ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ عن الَّتي قبلَها؛ لكونها جاءتِ استئنافًا ابتدائيًّا؛ إذ هي انتقالٌ إلى التَّذكيرِ بنِعَمِ اللهِ تعالى على النّاسِ بمناسبةِ ما جرى من قوله: ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ﴾، والمقصودُ: التَّعريضُ بشُكْرِ اللهِ على نِعَمِه، وألّا يَعْبُدوا غيرَه، كما دَلَّ عليه التَّذييلُ عَقِبَ تَعدادِ هذه النِّعَمِ بـ ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾﴾ [الحجّ: 66]، أي: الإنسان المشرك[1].

ومضمون هذه الآية دليلٌ على إثبات قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ ونظيرِه من قبلُ، فهذا الدليل يُنْتِجُ هذه الأوصاف والأسماء ثابتة لله ﷻ، وهذه الأوصافُ في هذه الآيةِ بعضُ آثارِها ولوازمها، فلهذا غابت الواو؛ لما بين هذه الآية وما قبلها من كمال الاتِّصال، بغض النَّظر عن كون ما قبلَها خبرًا وكونِ صدرِها إنشاءً: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ الآية؛ إذْ ذلك لا ينظر إلى المعاني وحركتها وأنسابها، ولم يكنْ باب الفَصْل والوَصْل غامضًا دقيقًا إلّا مِن أجل أنَّ مدارَه على ذلك.

بلاغةُ الاستفهام ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ ونوعه وغرضه:

يُنَبِّهُ ليُراجعوا أنفسهم، فيرجعوا

الاستفهامُ في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ إمّا للتنبيه، ثمَّ يبتدئُ بما بعده، كَأَنَّهُ قالَ: أترى؟ ينزلُ اللهُ المَطَرَ، فتُصْبِح الأرْضُ مُخضرَّةً، فلهَذا رفع ﴿فَتُصْبِحُ﴾[2]، أيْ: هو استفهام حقيقيٌّ، أو هو استفهامٌ إنكاريٌّ للنفي، أي: الدّالُّ على نفي الوقوع؛ إذ نَزَلَتْ غفلةٌ كثيرٍ من النّاس

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 317.

(2) مكي، الهداية إلى بلوغ النهاية: 7/ 4925، والسمعاني، تفسير القرآن: 1/ 31، والسيوطي، الإتقان: 3/ 272.

عن الاعتبارِ بهذه النِّعمةِ والاعتدادِ بها منزلةَ عدمِ العلم بها، فأنكرَ ذلك العدم على النّاس الذين أهملوا الشُّكرَ والاعتبار[1].

أو استفهامٌ تَقريريٌّ للمَنْفيِّ، كما يُفصحُ عنه الرفعُ[2]؛ لأنَّ الاستفهامَ الإنكاريَّ دخلَ على (لم) النّافية، ونفيُ النَّفي إثباتٌ، فأفادَ التقريرَ، والمعنى: لقد رأيتَ بنظركَ وعلمكَ أنَّ اللّه أنزلَ ماءً من السَّماءِ، فتَخْضرُّ الأرض[3]، أيْ: هو أمرٌ مُتقرِّرٌ ماضٍ، لا يُدَّعى جَهْلُه[4]، أيْ: إنكارٌ للنَّفي مع تقريرٍ للمَنْفي، والمعنى: ألم تعلم؟ أو: ألم تُبصر؟ فإنَّ كون المُنزِل هو اللّه تعالى، وإنْ لم يكن مُبصَرًا، لكن لكمالِ ظهوره كالمحسوس[5]، وفي هذا إيضاحٌ لحُججِهِ سبحانه وإنارةٌ لبراهينه[6]، وحثٌّ منه تعالى، وترغيبٌ للنَّظرِ في آياته الدّالّاتِ على وحدانيَّته وكماله[7].

كون المُنزِل هو اللّه تعالى، وإنْ لم يكن مُبصَرًا، لكنَّه لكمالِ ظُهورِهِ كالمحسوسِ

ويرى بعضُ العلماء أنَّ ﴿أَلَمْ﴾ حرفُ تعجيبٍ، يعجِّبُ رسولَ اللّه ﷺ جميعَ ما يكون من أفعالِهِ سبحانه[8]، كأنَّهُ قيل: تنبَّه لإنزالنا الماء لتتعجَّب منه على هذه الحالةِ البديعةِ والقدرةِ الباهرةِ، فيكون لكَ تبصرةً وذكرى للإنابةِ والخضوعِ، وأنَّ اللّهَ يبعثُ مَنْ في القبور[9]، ولا تعارض بين حَمْل الاستفهام على كلِّ هاتيك المعاني.

لا تعارضَ بين حَمْلِ الاستفهام على كلِّ هاتيك المعاني

معنى (لم) في ﴿أَلَمْ تَرَ﴾:

(لم) في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ نافيةٌ، وقد دخلَتْ على الفعل المضارع ﴿تَرَ﴾ لتُخلِّصَهُ إلى المُضيِّ، وقد حُكيَ

رؤيةُ إنزالِ الماءِ واخضرارِ الأرضِ والعلمِ به أمرٌ مُتقرِّرٌ ماضٍ لا يُدَّعى جَهْلُه

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 318.
(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 77، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 117.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 5017.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 318.
(5) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 13/ 107.
(6) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 7/ 437.
(7) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 544.
(8) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 7/ 437.
(9) الطيبي، فتوح الغيب: 10/ 522.

مُتعلَّقُهُ - وهو الإنزالُ - بصيغَةِ الماضي ﴿أَنزَلَ﴾، ولم يُراعَ فيهما معنى تَجدُّدِ ذلك؛ لأنَّ مَوقِعَ إنكارِ عدَمِ العِلمِ بذلك الذي أفاده الاستفهامُ الإنكاريُّ هو كونُه أمْرًا مُتقرِّرًا ماضيًا لا يُدَّعى جَهْلُه[1].

دلالةُ التَّعبيرِ بفعل الرُّؤية مادَّةً وصيغةً:

تجدُّدُ المشاهدةِ يَصْرِفُ المُعانَدَةَ

عبَّرَ القرآنُ بالفعل ﴿تَرَ﴾ في آية: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ دون قوله: (ألم تعلم)؛ وذلك لاتِّساع دلالةِ لفظ الرُّؤية؛ إذ (رأى) تدلُّ على نظرٍ وإبصارٍ بالعين أو القلب، ورأى إذا تعدّى إلى مفعولَيْن؛ اقتضى معنى العلم، فالرُّؤيةُ: إدراكُ المرئيِّ بحاسَّةِ البصرِ أو بالفكرِ والعقلِ[2]، فكان التَّعبيرُ بالرؤية أوسعَ دلالةً؛ لأنَّه يشملُ الإبصارَ والمشاهدةَ بالعين، ويشملُ الاعتبارَ بالقلب، بينما تركيب (ألم تعلم) يدلُّ على الإدراكِ والمعرفة.

ويمكن أنْ تُرادَ بـ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ الرؤيةُ الحقيقيَّة؛ لأنَّ الماءَ النّازل من السَّماء يُرى بالعين، أو أنَّ المُراد بالرؤية: العِلمُ لا الرؤية الحقيقية[3]، وقد عبَّر بالرُّؤية؛ ليبيِّن للنَّبيِّ ﷺ أو لأيِّ سامع لهذا الكلام "أنَّ الذي يُعْلِمُك اللّهُ بهِ أوثقُ ممّا تهديك إليه عينُك"[4].

يصحُّ أن يكونَ الخطاب هنا لكلِّ مَنْ تصلحُ منه الرُّؤية؛ لأنَّ المَرْئيَّ مشهور

وكذلك عبَّرَ بالرؤية للإشارةِ إلى أنَّ هذا الأمرَ - وهو إنزالُ الماءِ من السَّماءِ وإنباتُ النباتِ - أمرٌ يراهُ كلُّ أحدٍ من الخلقِ، وعليه فالحجَّةُ به على المنكرين أكبرُ؛ إذ الخطابُ في الآيةِ يصحُّ أن يكون لكلِّ مَنْ تصلحُ منه الرُّؤية؛ لأنَّ المَرْئيَّ مشهورٌ[5].

كما أنَّ التعبيرَ بالرؤيةِ أبلغُ من التَّعبيرِ بألفاظ متقاربة في المعنى

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 318.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رأى)، والعسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 94، والراغب، المفردات: (رأى)، والفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز: 3/ 116، ومحمّد جبل، المعجم الاشتِقاقيُّ المؤصَّل: (رأى).
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 23/ 246.
(4) الشعراوي، تفسير الشّعراوي: 16/ 9909.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 317.

مثل: (ألم تنظر؟) أو: (تبصر؟) رغم اشتراكها في معنى الإدراك، ولكنَّ لكلٍّ منها درجةً في الإدراك، فأعلاها: الرؤيةُ التي تتميَّز بالعلم، وأمّا البصرُ؛ فيتميَّز بالوضوح، وأدناها النَّظرُ الذي يكون بمعاينةِ الشيء دون رؤيته، وقد يكون بتأمُّله والتَّفكُّر فيه مع رؤيته.

التَّعبيرُ بالرؤيةِ أبلغُ من التَّعبيرِ بألفاظ متقاربةٍ في المعنى

وأمّا التعبيرُ بصيغة المضارع ﴿تَرَ﴾ الذي يفيدُ التجدُّدَ والاستمرارَ والتصويرَ، للتناسُبِ مع تجدُّد صورةِ نزولِ المطرِ واخضرارِ الأرضِ والبدءِ في عرضِ مشاهدِه أمامَ العيون، فتتجدَّد الدعوةُ للرؤيةِ والاعتبار؛ كلَّما تجدَّد مشهدُ إنزالِ المطر، وللتَّناسُبِ مع السياق، حيثُ عُبِّرَ بصيغةِ المضارع في ﴿فَتُصْبِحُ﴾ في تصويرِ حدثِ إنزالِ الماء من السَّماء واخضرارِ الأرضِ، ويشتركُ مع الإطنابِ بذكرِ السماءِ رغمَ أنَّ إنزالَ الماءِ لا يكونُ إلّا مِنَ السماء[1].

تتجدَّدُ الدعوةُ للرُّؤيةِ والاعتبار؛ كلَّما تجدَّد مشهدُ إنزالِ المطر

بلاغةُ المجازِ في التَّعبير عن العلم بالرُّؤية:

اختار البيانُ القرآني لفظَ ﴿تَرَ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾، وأرادَ العلم، والمعنى: ألم تعلم أنَّ اللّهَ أنزلَ من السَّماء ماءً، أيْ: إنَّ المرادَ هنا ليس هو الرؤيةَ الحقيقيَّة، وإنَّما الرؤية المجازيَّة بإطلاقِ الرُّؤية وإرادةِ العلم، لأنَّ إنزالَ المطرِ، وإنْ كان مُشاهدًا بالبصرِ، فكون اللّهِ هو الذي أنزله إنَّما يُدرَكُ بالعلمِ لا بالبصرِ، فالرُّؤيةُ هنا علميَّة على التَّحقيق[2]، ولأنَّ الرؤيةَ إذا لم يقترن بها العلمُ؛ كانت كأنَّها لم تحصل، وهو ما رجَّحه الرازي في تفسيره[3].

رُبَّ مَـجـازٍ هو الحقيقة السياقيةُ

والمجازُ هنا مرسلٌ، علاقتهُ سببيَّة؛ إذ السَّببُ هو الرؤيةُ، والمسَبَّبُ هو العلم؛ لأنَّ الرُّؤيةَ طريقٌ إلى العلم، وفي هذا كنايةٌ عن وضوحِ هذا الأمر، وهو إنزال اللّهِ للماءِ من السَّماء، وتسبُّبه في اخضرار

مع المجاز اتِّساعُ المعنى: (الرُّؤية والعلم)، ومع الحقيقة: (العلم) معنى واحدٌ

(1) عبد السلام الراغب، وظيفة الصورة الفنية في القرآن، ص: 223.
(2) الشنقيطي، أضواء البيان: 5/ 807.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 23/ 246.

الأرض؛ إذ يراه كلُّ أحدٍ من الخلقِ، ويستطيعُ إدراكه، وعليه فالحُجَّةُ به على المُنكرين أكبرُ، فمع المجازِ اتِّساع المعنى: (الرؤية والعلم)، ومع الحقيقة: (العلم) معنًى واحدٌ، والأقوى منهما هو الأبلغُ؛ تناسبًا مع معنى الكمال المُفاد بالتعريف بـ(أل) في الفاصلة السابقة على هذه الآية: ﴿ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾.

بلاغةُ الإدماجِ في الآية:

كلُّ دليلٍ نعمةٌ، وكلُّ نعمةٍ دليلٌ

الآيةُ هي انتقالٌ إلى التَّذكيرِ بنِعَمِ اللهِ تعالى على الناس بمناسبة ما جرى من قوله: ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ﴾، والمقصودُ: التَّعريضُ بشُكْرِ اللهِ على نِعَمِه، وألّا يَعْبُدوا غيرَهُ، كما دَلَّ عليه التَّذييلُ عَقِبَ تَعدادِ هذه النِّعَمِ بـ ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾﴾ [الحجّ: 66]، أي: الإنسانُ المشركُ، وفي ذلك كلِّه إدماجُ الاستدلالِ على انفرادِه بالخَلقِ والتَّدبيرِ، فهو الرَّبُّ الحقُّ المُستحِقُّ للعِبادةِ، والمناسبةُ هي ما جرى من أنَّ اللهَ هو الحقُّ، وأنَّ ما يدعونه هو الباطل[1].

المُرادُ بالمخاطَبِ في الآية:

ليس كمِثْلِ نبيِّنا نبيٌّ يُحبُّ أمته

الخطابُ في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ لكلِّ مَن تصلحُ منه الرُّؤية؛ لأنَّ المرئيَّ مشهور[2]، والمعنى: ألم تبصر - أيُّها الرائي - أنَّ اللهَ يُنزلُ من السماءِ مطرًا؟[3] وفي هذا إشارةٌ إلى وضوحِ الحجَّة وقوَّتها، وهذا لا يُعارضُ مَنْ فسَّرها بكون الخطاب للنَّبيِّ ﷺ كالطَّبريِّ الذي، قال: "ألَمْ تَرَ - يا محمد - أنَّ اللهَ أنْزَلَ من السَّماءِ ماءً"[4]؛ لأنَّه ﷺ هو المخاطَبُ الأوَّل الذي سيُبلِّغُ القرآنَ عن اللهِ سبحانه، وخطابه هو خطابٌ لأمَّته.

لماذا لا تنتفعون بالقرآن كما تنتفعون بالماءِ؟

وإذا حُمِل الخطابُ على أنَّه للنَّبي ﷺ؛ كان فيه معنى أنَّه (أي:

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 317.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 317.
(3) المراغي، تفسير المراغي: 17/ 136.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 676.

النبي) يُحبُّ، ويرجو أن ينظرَ هؤلاء الكفار في تلك الأدلة الظاهرة، فيُفلحوا، ويَفوزوا، وفيه إيماءٌ إلى أنَّ إنزالَ القرآن كإنزال الماء، كلاهما مِن السَّماء، وأنَّ معاني القرآن كالماء، كلاهما يؤثِّر، وينفع؛ فلماذا لا تنتفعون بالقرآنِ كما تنتفعونَ بالماءِ؟ وإذا صحَّ حمْلُ الخطابِ على هذا النَّحو؛ رأيتَ الوجهَ الآخَرَ الذي يُحْمَلُ فيه الخطابُ على كلِّ أحدٍ داخلًا في هذا الوجه، وحاضرًا فيه، فالحَمْلُ على أنَّ الخطاب له ﷺ هو الأعلى.

نكتةُ توالي المؤكِّدات في قوله: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ﴾:

أكَّد البيانُ القرآنيُّ قوله تعالى: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ بعدَّة مُؤكِّدات، **أوَّلُها:** حرفُ التَّوكيد ﴿أَنَّ﴾ الذي يُؤكِّد إنزالَ اللهِ المحيطِ قدرةً وعلمًا الماءَ من السماء، **وثانيها:** الجملةُ الاسميَّةُ ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ التي تدلُّ على الثَّباتِ والاستمرارِ وقوَّة الحُكم وبقائه، فإنزالُ الماءِ من السَّماءِ سُنَّةٌ إلهيَّةٌ ثابتةٌ جعلها اللهُ سببًا لإحياءِ الأرضِ بعد موتها، ووراء التَّوكيد كلُّ تعجُّب مِمَّن يُشاهد ذلك، ولا يعمل بموجِبه ومقتضاه، فمَنِ انصرف عن العمل بذلك؛ كان كمَنْ أنكره؛ لأنَّه لم يُشاهده.

قد تكون الأُلْفة شرًّا

الموقعُ النَّحويُّ لقوله: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾:

﴿أَنَّ﴾ وما في حيّزها في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ سدَّتْ مسدَّ مفعولي ﴿تَرَ﴾؛ لأنَّ الرؤيةَ في الآية علميَّةٌ[1]، والتَّقدير: "ألم تعلمْ أنَّ اللهَ مُنزلٌ من السماء ماءً، فتصبحُ الأرضُ مُخضرَّةً"[2].

المفعوليَّة تأكيدٌ على أنَّ الرؤيةَ علميَّةٌ

نكتةُ التَّعبيرِ بالماضي ﴿أَنزَلَ﴾:

عبَّرَ البيانُ القرآنيُّ عن إنزالِ الماء من السَّماء بصيغة الماضي ﴿أَنزَلَ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾، ولم

سبحان مَن لم يقطع إحسانه عن عباده

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 470.
(2) الشنقيطي، أضواء البيان: 5/ 807.

يراعِ فيه معنى تجدُّدِ الإنزال؛ للدَّلالةِ على تحقُّقِ وقوعِ إنزالِ الماء، فهم قد عاينوه، ويتقلَّبون في آثاره من اخضرارِ الأرض، ولأنَّ موقعَ إنكارِ عدمِ العلمِ بذلك هو كونُه أمرًا مُتَقَرِّرًا ماضيًا لا يُدّعى جَهله[1]، ولمناسبةِ قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ التي تعني: (ألم تعلم)، أو: (ألم تُخبَر)، والإعلامُ والإخبارُ يكون عن شيءٍ حدثَ، وانقضى.

تنبيهٌ على نعمة إنـزالِ المـاء من السَّماء

وفي التَّعبير بالماضي تنبيهٌ على نعمة إنزال الماءِ من السَّماء؛ حيث إنَّها لم تنقطع عنهم أبدًا، وفي كلِّ مكان، فالسَّماء إن لم تُمطِر هنا؛ أمطرت هناك؛ ففي الماضي امتنانٌ من شأنه أن يجُرَّ العبدَ إلى الإيمان.

معنى ﴿مِنَ﴾ في ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾:

ابـتـداءُ نـزولِ الماءِ من السَّماءِ دلالـةٌ عـلى أنَّ اللـه هـو العـليُّ الكبير

﴿مِنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ ابتدائيَّةٌ؛ لأنَّ ماءَ المطرِ يتكوَّنُ في طبقاتِ الجوِّ العليا الزمهريريَّة عند تصاعدِ البخارِ الأرضيِّ إليها، فيصيرُ البخارُ كثيفًا، وهو السحابُ، ثم يستحيلُ ماءً، وفي كونِ هذا الماءِ نازلًا من السَّماءِ إشارةٌ إلى طهارته؛ إذ هو ليس كماءِ الأرضِ الذي ربَّما خالطته النَّجاسات، وإشارةٌ إلى مكانته؛ إذ هو نازلٌ من السَّماءِ التي لها مكانةٌ ومهابةٌ وتعظيمٌ في قلوبِ النّاس، كما أنَّه لا تأثيرَ لكسبِ العبدِ فيه بزيادةٍ أو نقصٍ، بخلافِ ماءِ الأرضِ، فيُنال بالآلاتِ، وإلى أنَّ السماءَ هي مبدأُ الماءِ، فأصلُ ماءِ الأرضِ هو من ماءِ السَّماء.

معنى (أل) في ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾:

يعهدون نزولَهُ من السَّماء؛ ولا يؤمنون بمَن بيده إمساكُه؛ إذا شاء

(أل) في كلمة ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾ - في قوله تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ - عهديَّةٌ، والعهدُ فيها ذهنيٌّ، أي: السَّماء المعهودة، وهي السَّماء التي ينزلُ منها المطر، وهي ما علا الإنسان، فليستْ هي

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 318.

أجرامَ السماءِ من شمسٍ وقمرٍ وكواكبٍ في أبراجها وتماسكها، إنَّما المطرُ ينزلُ من سحابٍ قريبِ دانٍ أو بعيدٍ قاصٍ، وذلك بيَّنه قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا﴾ [النور: 43][1] الآية، والغرضُ من هذا التعريفِ أنْ يستحضروا صورةَ السَّماءِ التي ينزلُ منها المطر، بما يقيمُ عليهم كمالَ الحُجَّةِ في بيانِ عظمةِ قدرةِ اللهِ، فيعملوا بمقتضَى ذلك من اعتقاد التوحيد، وترك الشِّرك.

نكتةُ تنكير ﴿مَآءً﴾:

نكَّر البيان القرآنيُّ لفظَ ﴿مَآءً﴾ في قوله تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ في سياقِ الامتنانِ والاستدلالِ على قدرةِ الله؛ لإفادةِ معنى التَّكثيرِ والتَّفخيم لشأنِ الماءِ النّازلِ من السَّماء، فهو سببُ الحياةِ ودوامها، أيْ: أنزلَ من السَّماء ماءً كثيرًا فخيمًا.

تفخيمٌ لشأن الماء؛ إذْ هو سببُ الحياةِ ودوامها

معنى الفاء في قوله ﴿فَتُصْبِحُ﴾:

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ عاطفةٌ، وتُفيد التَّعقيب والفوريَّة بالنظر إلى المبدأ، فتعقيبُ كلِّ شيءٍ بحسَبِه[2]، كما في قولِه تعالى: ﴿فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً﴾ [المؤمنون: 14]، وكذلك ابتداءُ الاخضرارِ عقيبَ الإنزالِ، وإنْ كانَ منتهاه بزمانٍ طويل؛ لأنَّ النَّباتَ يَخرُجُ بعدَ نُزولِ المطرِ بمُدَّةٍ، وفي هذا إشارةٌ إلى سرعةِ ظهورِ النَّباتِ عقبَ نزولِ المطر، واستمرارِه كذلك عادَة[3]، وتنبيهٌ إلى عجائبِ اللهِ في الخلقِ والتكوين، إذ يكونُ من التلاقحِ بين الماءِ والأرضِ اليابسةِ نباتٌ مخضرٌّ تزدانُ به الأرض، وتكونُ ذاتَ منظرٍ بهيج[4]، بما يؤذنُ بعظمةِ قدرةِ الخالق سبحانه وسرعتها.

في التعقيبِ إيذانٌ بسرعةِ قدرةِ الخالقِ سبحانه

ويمكن ألّا تكونَ الفاءُ للتعقيبِ، وإنَّما للتراخي كـ(ثمَّ)، بأنْ تكونَ

قد تفيدُ الفاء التراخي، وكذلك معنى السَّببيَّة

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 5018.
(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 450، والسيوطي، الإتقان: 2/ 247.
(3) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 12/ 92.
(4) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 5018.

﴿فَتُصۡبِحُ﴾ هنا بمعنى تصير؛ لأنَّ (كان) تُستعملُ بمعنى: صار، والعرب تقول: فلانٌ أصبحَ غنيًّا، أيْ: صار غنيًّا[1]، وثَمَّة جُمَلٌ مَحذوفةٌ عُطِفت عليها ﴿فَتُصۡبِحُ﴾، والتَّقديرُ: (فتهتزُّ، وتَربو، فتُصبحُ)؛ ويُبيِّنُ ذلك قولُه تعالى: ﴿فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ﴾ [الحج: 5][2]، أو التقدير: (أتَيْنا بِهِ، فطالَ النَّبْتُ، فتُصْبِحُ)[3]، وفيها كذلك معنى السببيَّة؛ لأنَّ اخضرارَ الأرْضِ مُستقبَلٌ بالنسبةِ إلى الإنْزالِ مُسبَّبٌ عنه[4].

إطلاعُ الإنسانِ على كمال عجزِهِ عن إنبات شيء

ويمكن أن يتوجَّه معنى التَّعقيب بأنَّ عمليَّة تسبُّبِ اخضرار الأرض عن إنزال الماء من السماء في الأرض أو عليها: شيءٌ يغيبُ عن إدراك الإنسان؛ ولهذا قال في الفاصلة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾، وإنَّما الذي يشاهدُه هو مآل تلك العمليَّةِ، مِنَ الاخضرار المذكور، والغرضُ من إطلاع الإنسان على كمال عجزِهِ عن أن يُنبت شيئًا، وعلى كمال قدرةِ الله وامتنانه على عبادِهِ، فهو الذي أنزلَ من السَّماء ماءً، وهو الذي يجعل الأرض مُخضرَّةً، أفلا يشكرون؟ فيوحِّدونه سبحانه، ويُفردونه بالعبادة والدعاء.

نكتةُ التَّعبيرِ عن مصير الأرض بالفعلِ المضارع ﴿فَتُصۡبِحُ﴾:

الإشعارُ بتجدُّدِ أثرِ الإنزالِ واستمرارِهِ واستحضارِ صورةِ الاخضرارِ

التَّعبيرُ عن مَصيرِ الأرضِ بصيغةِ المضارع ﴿فَتُصۡبِحُ ٱلۡأَرۡضُ مُخۡضَرَّةً﴾ - مع أنَّ ذلك مُفرَّعٌ على فِعْلِ ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ الَّذي هو بصيغةِ الماضي، أيْ: عَدَلَ عن لفظِ الماضي، ولم يَقُلْ: فـ (أصبحت)؛ لأنَّه قُصِدَ من المُضارِعِ التَّعجيبُ[5]، وكذلك تصويرُ الحالِ واستحضارُ تلك الصّورةِ العجيبةِ الحَسَنةِ من الاخضرارِ

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 9/ 336، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 318.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 533.
(3) الزركشي، البرهان في علوم القرآن: 4/ 295.
(4) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 13/ 107، وعضيمة، دراسات لأسلوب القرآن: 2/ 227.
(5) السيوطي، معترك الأقران: 3/ 308.

في ذهن السامع[1]، كأنَّها لم تزلْ واقعةً مُشاهدَةً، وصيغةُ الماضي لا تُفيدُ ذلك؛ لأنَّ الفعلَ الماضي يفيدُ انقطاعَ الشَّيء[2]، ولإفادةِ بَقاءِ أثَرِ إنزالِ المطَرِ الذي يتخزَّن في الأرضِ زمانًا بعْدَ زَمانٍ، وتجدُّده واستمراره؛ كلَّما سُقيتْ به الأرضُ الميتة[3]، فإنزالُ الماءِ مضى وجوده، واخضرارُ الأرضِ باقٍ لم يمضِ[4].

مَـنْ قـدرَ على إحـيـاءِ الأرض بعد موتها قادرٌ عـلى الـبـعـثِ والإحياء

وفي التعبير بصيغةِ المضارع ﴿فَتُصْبِحُ﴾ تنبيهٌ على عظمةِ النِّعمةِ بطولِ زمانِ أثرِ المطر وتجدُّدِ نفعه[5]، ولأنَّ اخضرارَ الأرْض مستقبَلٌ بالنِّسبةِ إلَى الإنْزال، مسبَّبٌ عنه[6]، وفي هذا كلِّه قصدٌ لِلْمُبالَغَةِ في تَحقيقِ اخضرارِ الأرْضِ لأهَمِّيَّتِه؛ إذْ هو المقصودُ بالإنْزال[7]، وبالتالي المبالغةُ في الاستدلالِ على مُنكري البعثِ بأنَّه مَنْ قدرَ على استمرارِ إحياءِ الأرض بعد موتها ويبسها لقادرٌ على البعثِ والإحياء.

نكتةُ رفعِ الفعل ﴿فَتُصْبِحُ﴾:

سببُ اخـضـرارِ الأرضِ إنزالُ الماءِ لا رؤْيةُ إنزاله

رَفَعَ البيانُ القرآنيُّ الفعلَ ﴿فَتُصْبِحُ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ رغم أنَّه سُبِقَ باستفهام؛ لأمور: أحدهما: أنَّه استفهامٌ تقريريٌّ بمعنى الخبر، أيْ: قد رأيتَ، فلا يكونُ له جواب، والثاني: أنَّ ما بعدَ الفاءِ ينتصبُ؛ إذا كان المستفْهَمُ عنه سببًا له، ورؤيته لإنزالِ الماءِ لا يتسبَّبُ عنها اخضرارُ الأرض، وإنَّما اخضرارها يكون بسببِ نزولِ المطر، فالسببيَّةُ هنا غيرُ مُتحقِّقة[8]، والثالث: أنَّه لو نصبَ؛ لأعطى عكسَ ما هو الغرض؛ لأنَّ معناه إثباتُ الاخضرارِ،

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 117، والقاسمي، محاسن التأويل: 4/ 208.
(2) طنطاوي، التفسير الوسيط: 9/ 336.
(3) الزمخشري، الكشاف: 3/ 168، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 318.
(4) ابن الأثير، المثل السائر: 2/ 148.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 82.
(6) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 13/ 107.
(7) الزركشي، البرهان في علوم القرآن: 3/ 374.
(8) العكبري، التبيان في إعراب القرآن: 2/ 947، وطنطاوي، التفسير الوسيط: 9/ 336، والشنقيطي، أضواء البيان: 5/ 295.

فينقلبُ بالنَّصبِ إلى نفيِ الاخضرار، مثالُهُ: أنْ تقولَ لصاحبك: ألم ترَ أنّي أنعمتُ عليك، فتشكرُ، وإنْ نصبتَهُ؛ فأنت نافٍ لشُكرِهِ شاكٍّ لتفريطه، وإنْ رفعتَهُ، فأنت مُثبِتٌ للشُّكر[1].

يمكنُ أنْ يكون (فَتُصْبِحُ) بمعنى أصبحَتْ

ويجوزُ أنْ يكون ﴿فَتُصْبِحُ﴾ بمعنى: أصبحَتْ، وهو معطوفٌ على ﴿أَنزَلَ﴾، أيْ: مُفرَّعٌ عليه، فهو مثبتٌ في المعنى، وليس مُفرَّعًا على النَّفي ولا على الاستفهام؛ لأنَّه لم يُقصَدْ بالفاء جوابٌ للنَّفي؛ إذ ليس المعنى: ألم ترَ، فتصبحَ الأرض؛ فلذلك فلا موضعَ للنَّصبِ إذًا[2].

إنزالُ الماءِ مِن السَّماء نعمةٌ، وجعلُ الأرض مُخضرَّةً نعمةٌ أخرى

وفي نظمِهِ مرفوعًا - غير ما سبقَ ذكره، وغير متعارض معه - تنبيهٌ لطيفٌ على أنَّ إنزال الماء مِن السَّماء نعمةٌ، وجعْلُ الأرض مُخضرَّةً نعمةٌ أخرى، فهما يجريان في فلك صورة واحدة ومعنى واحد، ولكنَّ كلًّا منهما يدلُّ على الله، ويُحقِّقُ المقصود للسياق.

نكتةُ التَّعبيرِ بـ﴿فَتُصْبِحُ﴾ دون بقية الأوقاتِ:

رُؤيةُ الخُضرةِ في الصَّباح تُجدِّد الإيمان

خُصَّ الفعل ﴿فَتُصْبِحُ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ دون سائرِ أوقاتِ النَّهارِ؛ لأنَّ رُؤيةَ الأشياءِ المحبوبةِ أوَّلَ النَّهارِ أبهَجُ وأسَرُّ للرّائي[3]؛ ولأنَّ رؤيةَ الخضرةِ بالنَّهارِ أوضحُ منه بالليل، ولأنَّ رؤيةَ الخُضْرة في كلِّ وقتٍ تُبهج، فكيف تكون بهجة رؤيتها صباحًا، والإنسان في مطلع سعيه وفكره؟ وكأنَّ في اصطفاء ﴿فَتُصْبِحُ﴾ إرشادًا إلى خير الأوقات لرؤية اخضرار الأرض، والتأمُّل فيه، والمعنى: أنَّ الأرضَ صارت على هذا باللَّيل والنهار[4]، أو لأنَّ ﴿فَتُصْبِحُ﴾ هنا بمعنى تصير، والعرب تقول: فلان أصبح غنيًّا، أيْ: صار غنيًّا.

(1) الزمخشري، الكشاف: 3/ 168.

(2) العكبري، التبيان: 2/ 947، وطنطاوي، التفسير الوسيط: 9/ 336، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 318.

(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 533.

(4) مكي، الهداية إلى بلوغ الغاية: 7/ 4926.

معنى (أل) في ﴿ٱلۡأَرۡضُ﴾:

عـمـومُ النِّعمة آيةُ كمالِ القُدرة

(أل) في كلمة ﴿ٱلۡأَرۡضُ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَتُصۡبِحُ ٱلۡأَرۡضُ مُخۡضَرَّةًۚ﴾ جنسيَّةٌ، أيْ: جنسُ الأرضِ الصالحةِ للإنباتِ؛ إذ ليس كلُّ الأرضِ لها أهليَّةُ الإنبات، والمعنى: تصبحُ كلُّ أرضٍ صالحةٍ للإنباتِ مُخضرَّةً، والغرضُ من هذا التعريفِ الدَّلالةُ على عظيمِ قدرةِ اللهِ في كلِّ أرضٍ صالحةٍ للإنباتِ ينزلُ عليها الماءُ، فتصبحُ مخضرَّةً، وأيُّ ماء يسقي كلَّ أفرادِ هذا الجنس؟.

نكتةُ التَّعبير بـ﴿مُخۡضَرَّةًۚ﴾ مادَّةً وصيغةً:

في كـــلِّ شيء جـمـالٌ، وإنَّـمـا العيبُ في الناظر

عبَّرَ البيانُ القرآنيُّ عن النَّباتِ - الَّذي هو مُقتضى الشُّكرِ؛ لِما فيه من إقامةِ أقواتِ النّاسِ والبهائم - بذِكرِ لَونِه الأخضرِ، فقال: ﴿فَتُصۡبِحُ ٱلۡأَرۡضُ مُخۡضَرَّةًۚ﴾؛ لأنَّ ذلك اللَّونَ مُمتِعٌ للأبصارِ، فهو أيضًا موجِبُ شُكرٍ على ما خلَقَ اللهُ من جَمالِ المصنوعاتِ في المَرْأى، كما قال تعالى: ﴿وَلَكُمۡ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسۡرَحُونَ ٦﴾ [النَّحل: 6][1]، ولأنَّ في التعبيرِ بالخضرةِ إشارةً إلى أنَّ الأرضَ أصبحتْ حيَّةً يانعةً مهتزَّةً ناميةً، بعد أنْ كانت مسودةً يابسةً ميِّتةً هامدة[2]، وأصبحت كسوةً باهرةً بالنَّباتِ النّاعمِ الرَّيّانِ الذي يُرى لشدَّةِ خُضرتِهِ مِنْ بُعْدٍ كأنَّهُ أسْوَدُ[3]، ويُحسِّن هذا أنَّ كثيرًا مِن أنواعِ النَّبات فيه اللون الأخضر.

رؤيـــةُ الأرضِ مُـخـضـرَّةً بين عشيةٍ وصباحٍ تـدلُّ عـلى قـدرةِ اللهِ على البعثِ

و﴿مُخۡضَرَّةًۚ﴾ خبر ﴿فَتُصۡبِحُ﴾، والخبرُ وصفٌ في المعنى لصاحبه، وهي اسمُ فاعلٍ للفعلِ (أخضر) على وزن (أفعل)، وهو ممّا يُصاغ للاتِّصاف بالألوان، ومجيئُها بصيغةِ اسم الفاعل الذي يُفيدُ الثُّبوتَ والدَّوامَ واللُّزوم؛ للإيذانِ بثبوت خُضرتها ولزومه، فالأرضُ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 328.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 82.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خضر).

لخضرتها اختفتْ طينتها، ولم تظهر إلّا خضرةُ زرعها، والاخضرارُ للزَّرعِ لا للأرضِ، ولكن وُصفت بالاخضرارِ؛ لأنَّه صارت للأرض كسوةٌ باهرةٌ زاهرةٌ[1]، وللإشارةِ إلى أنَّ رؤيةَ الأرضِ بعد نزولِ الماءِ من السَّماءِ مُخضرَّةً بين عشيَّةٍ وصباحٍ ظاهرةٌ واقعةٌ مكرورةٌ تدلُّ على قدرةِ اللّهِ على الإحياءِ والبعثِ يوم القيامة.

نكتةُ فصلِ قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾:

فَصَلَ القرآنُ جملة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ عمّا قبلها ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾، ولم يربطهما بعاطفٍ؛ لِما بين الجملتَيْن من كمالِ اتِّصال؛ إذ إنَّ الجملة الثانية ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ جاءَتْ مُستأنفةً تُفيد إمّا تعليلَ إنزالِ الماءِ من السَّماءِ المُتفرِّع عليه الاخْضرارُ؛ لأنَّهُ رحيمٌ رَفيقٌ بِمَخْلوقاتِه، عَليمٌ علمًا دقيقًا بِتَرْتيبِ المُسَبَّباتِ على أسْبابِها[2]، وعليمٌ بما ينفعهم، ويقومُ به عيشهم؛ لأنَّ الأرضَ إذا أصبَحَتْ مُخضرَّةً، والسَّماءَ إذا أمطَرَتْ؛ كان ذلك سببًا لعَيشِ الحيواناتِ على اختلافها أجمع[3]، أو تعليلًا لإنتاجِ الأشياءِ من أضدادها؛ إذ إنَّ كلًّا من الماءِ في رقَّته وميوعته، والتراب في كثافته وجموده في غايةِ البعدِ عن النباتِ في تنوُّعه وخُضرته ونُموِّه وبهجته[4]، فما قبلَ الفاصلة بعضُ لوازم معناها.

ما أسهلَ توصيلَ الإنزال والاخضرار إلى الله!

فائدةُ تتابعِ المؤكِّدات في فاصلة الآية:

تتابعَتِ المؤكِّدات في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ من ﴿إِنَّ﴾ التي تفيدُ التَّوكيد، والجملةِ الاسميَّةِ المفيدةِ الثُّبوتَ والدَّوامَ، وصيغةِ المبالغة في الاسمَيْن ﴿لَطِيفٌ﴾ و﴿خَبِيرٌ﴾ اللَّذيْن جاءا على وزن (فعيل)، وكذلك تكرارُ خبرِ الجملةِ الاسمية - إذ إنّ ﴿خَبِيرٌ﴾

لا يُستبعدُ عمَّن اتَّصف باللُّطفِ والعلمِ البعثُ والإحسانُ في الرِّزق

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 5018.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 319.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 23/ 247.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 76.

خبرٌ ثانٍ - والاستئنافُ الذي يقتضي تأكيدَ الحُكم؛ إذ جاءتِ الجملةُ تعليلًا لإنزالِ الماءِ، أو إنتاجِ الأشياءِ من أضدادها، وتوالي هذه المُؤكِّداتِ يفيدُ المبالغةَ في تأكيدِ لطفهِ سبحانه وعلمه، ممّا جعلَ المُفسِّرين يذكرون للوصفَيْن في الفاصلة المعانيَ الكثيرة التي تصلحُ كلُّها، بما يدلُّ على كمال لطفه وعلمِه، فمن هذه المعاني: هو الذي له تمامُ العزِّ وكمالُ العلم لطيفٌ يُسبِّبُ الأشياء عن أضدادها، خبيرٌ مطَّلعٌ على السرائرِ، وإنْ دقَّتْ[1]، وهو اللطيفُ بأرزاقِ عبادِه، الخَبيرُ بما في قُلوبهم من القُنوطِ، وهو اللَّطيفُ في أفعالِه، الخبيرُ بأعمالِ خَلْقِه، وهو اللَّطيفُ باستخراجِ النَّبتِ، الخَبيرُ بكيفيَّةِ خَلْقِه[2]، وهذه المعاني كلُّها تفيدُ التَّنبيهَ على أنَّ مَنْ كان هذا وصفُهُ؛ لا يُستبعدُ عليه إحياءُ مَنْ أرادَ بعد موته، والإحسانُ في رزقه[3]، ووراء هذا التَّأكيدِ التَّنبيهُ على أنَّ في الكون كثيرًا ممّا لو تأمَّلَهُ العبد؛ لتوصَّل إلى اللَّطيف الخبير، وعرَفَهُ، وقام وصفُه بذلك في نفسه.

نكتةُ تذييلِ الآية بـ ﴿لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾:

جبالُ الوصل بين صفاته وآثارها لا تُعَدُّ ولا تُحصَى

ذيَّلَ البيانُ القرآنيُّ الآيةَ الكريمةَ بالاسمَيْن الجليلَيْن ﴿لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾؛ لمطابقتهما ما سبقَ من معنى الآية ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ التي تضمَّنت ذِكْرَ الرَّحمة للخَلْقِ بإنزالِ الغيثِ، فكان لطيفًا بهم بإيصالِ منافعهم، وخبيرًا بنفعهم وبمقادير مصالحهم، فيفعلُ على قدرِ ذلك من دونِ زيادةٍ ونقصان[4]، أيْ: يلطفُ عن خبرةٍ وعن حكمةٍ بالمقاديرِ التي يفعلها، أو التي تضمَّنتِ الإشارةَ إلى لطفِ ذلك الماءِ النازلِ الذي يمتزجُ بالتُّربةِ، ولا يُفسدها، والذي يحملُ الرحمات... ولتأتي الخبرةُ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 76.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 23/ 247.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 5/ 170.
(4) ابن الأثير، المثل السائر: 3/ 164، والعلويّ، الطِّراز: 2/ 204.

الإلهيَّة تُدبِّرُ الأمرَ في إنزالِ الماءِ بقدرٍ في الوقتِ المناسبِ وبالقدْرِ المطلوب، وفي امتزاجِ الماءِ بالتربةِ، وبخلايا النباتِ الحيَّةِ المتطلِّعةِ إلى الانطلاقِ والنّور؛ لتنشأ الحياة بعد الموت[1].

لطيفٌ واصلٌ علمُهُ واسعٌ فضلُهُ، خَبيرٌ بمصالحِ الخلقِ ومنافعهم

بعد تنبيهه ﷻ على إنزالِ الماء واخضرارِ الأرضِ الدّالَّيْنِ على القدرةِ الباهرة والمستوجبَيْن للإنابةِ والخضوعِ لله، وأنَّه يبعثُ مَن في القبور؛ ذيَّل ذلك بما يُعدُّ تتميمًا لإرادةِ الإنابة إليه والإيمانِ بالبعث بأنَّه ﴿لَطِيفٌ﴾ واصلٌ علمه أو فضله إلى كلِّ شيءٍ ﴿خَبِيرٌ﴾ بمصالحِ الخلقِ ومنافعهم[2]، كما أنَّ: (اللطيف) يناسب حالَ العناصر السابقة بعضِها ببعضٍ، فأين النَّباتُ المتنوِّع الأخضرُ من التراب الكثيف الجامد؟ وأين ذلك كلُّهُ من الماء في رقَّته وميوعه؟ ثم إنَّ في ذلك من الأسرار الدقيقة الخفيَّةِ ما فيه، ولا يخبر بشيء منها إلّا الخبيرُ بها، ألا يعلمُ ما خلقَ، وهو اللَّطيف الخبير به؟

فائدةُ تقديم صفةِ لطيف على خبير:

من لُطْفِهِ تعالى تقديرُ أرزاقِ عبادِهِ حسبَ علمِهِ لا حسبَ مُراداتِهم

وردَ اسمُ اللهِ اللطيف مقرونًا باسمِ اللهِ الخبير في خمسة مواضع، وقد تقدَّم اسمُ اللَّطيفِ على الخبير في هذه المواضع، وهو ما يُعدُّ عادةً قرآنيَّة، كما أنَّ اسمَ اللطيفِ الذي من معانيه الرِّفقُ والرَّأفةُ والرَّحمةُ[3] يتناسبُ مع مضمونِ الآيةِ التي تتحدَّثُ عن رحمةِ اللهِ بإنزال الغيث، ورحمة اللهِ بإنباتِ النَّبات، ولأنَّ رحمته وسعَتْ كلَّ شيء، فتتقدَّمُ، ولأنَّ من لطفِ اللهِ بعباده ورحمته بهم أنَّه يُقدِّرُ أرزاقهم بحسبِ علمه بمصلحتهم لا بحسبِ مُراداتِهم، فقد يريدون شيئًا، وغيرُه أصلحُ، فيقدِّرُ لهم الأصلحَ، وإنْ كرهوه لطفًا بهم وبرًّا وإحسانًا[4].

يصحُّ أن يُقالَ: إنَّ ترتيبهما ناظرٌ إلى جعل الثاني من تمام الأوَّل؛

(1) الشعراوي، تفسير الشّعراوي: 16/ 9909.
(2) الطيبي، فتوح الغيب: 10/ 523.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (لطف).
(4) نوال العيد، موسوعة شرح أسماء الله الحسنى: 2/ 290.

زيادة في الإحسان بتمكين المعنى المقصودِ في النَّفس؛ فهو لطيفٌ، وهو خبيرٌ؛ لأنَّه عليم بدقائق الأشياء ومواضعها الصالحة بها، وهو أيضًا عليمٌ بكلِّ شيء كان، وبكل شيء يكون، وبكل شيءٍ كائنٍ، وما لم يكن لو كان كيف يكون.

نكتةُ تنكيرِ الاسمَيْن الجليلَيْن ﴿لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾:

لطفُهُ وخبرتُهُ سبحانه عظيمان لا يُحَدُّ حدُّهما ولا يُقادرُ قدْرُهُما

نكَّرَ البيانُ الإلهيُّ الاسمَيْن الجليلَيْن في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ في سياقِ التَّنبيهِ على كمالِ قدرةِ اللهِ الباهرةِ في إنزالِ الماءِ واخضرارِ الأرض والتَّعجيبِ منها، وجاء التَّأكيدُ لفاصلةِ الآية بعدَّة مؤكِّدات؛ لإفادةِ معنى التفخيم والتعظيم للُطفِ اللهِ بخلقه، فقد وصل علمُهُ ولطفه إلى كلِّ جليلٍ ودقيقٍ، فلا يصعبُ عليه شيء، وهو الرحيمُ الرؤوفُ البارُّ بهم، والعالمُ ببواطنِ أحوالهم، وهو مع ذلك كلِّهِ مُحكِمٌ للأمورِ برفق، والتفخيمُ والتعظيمُ لعلمِ اللهِ بما ينفعُ عباده، ويصلحهم، فهو الخبيرُ بالتدابير، وبما ظهرَ، وبطن[1]، وهذا اللُّطفُ والعلمُ لا يُحَدُّ حدُّهُ، ولا يُقادرُ قدْرُهُ، ولا يعلمُ أحدٌ شأوَهُ، وهذه العظمةُ تفرغُ الطمأنينة على قلبِ النَّبيِّ ﷺ والمؤمنين.

دلالةُ المبالغةِ بالاسمَيْن الجليلَيْن ﴿لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾:

مَن عمي عن الحقيقة العظيمة؛ غاب عنه أصلُ معناها

عبَّر البيانُ القرآنيُّ عن الاسمَيْن الجليلَيْن في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ بصيغةٍ على وزن فعيل، وهو من أبنيةِ المبالغة، ولذا فُسِّرَ اللَّطيفُ بأنَّه الَّذي اجتمعَ لَهُ الرِّفقُ في الفعلِ، والعلمُ بدَقائقِ المَصالحِ وإيصالُها إلَى مَنْ قَدَّرَها لَهُ مِنْ خَلْقِه[2]، وفُسِّرَ الخبيرُ بأنَّه العالمُ بِما كانَ وما يكونُ، وخاصَّةً بَواطِنَ الأشْياءِ[3]، وغرضُ المبالغةِ هو أنْ يحرِّكَ المشاعرَ والأحاسيسَ لتنفضَ عنها غبارَ الألفةِ لمشاهدِ

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السُّنَّة: 7/ 437، وأبو حفص النَّسَفي، التيسير في التفسير: 10/ 530، والإيجي، جامع البيان في تفسير القرآن: 3/ 68، ومجير الدين المقدسي، فتح الرحمن في تفسير القرآن: 4/ 445.

(2) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (لطف).

(3) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (خبر).

إحياءِ اللّهِ الأرضَ بعد موتها، والتي تراها ظاهرةً واقعةً مكرورةً، بما يغرسُ في قلوبِ المؤمنين الثِّقةَ برحمتهِ سبحانه، وبتدبيره وبنصرهِ – فهو لا يخفى عليه شيءٌ – وفي قلوبِ الكافرين عدمَ عبادةِ غيره، والإيمانَ بجماله وجلاله وبقدرته على البعثِ والنشورِ.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

(ألم تعلم) و(ألم تر):

في قولهِ: (ألم تر) معانٍ زائدةٌ على قوله: (ألم تعلم)

يوجد تقاربٌ كبير بين التركيبَيْن (ألم تعلم) و(ألم تر)؛ إذ يُفسِّر قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ في المواضع التي ورد فيها بـ(ألم تعلم)، ولأنَّه لا ترادفَ في القرآن الكريمِ، فإنَّ هناك فرقًا بين التَّعبيرَيْن، وذلك على النحو الآتي:

(ألم تر): أصلها من (رأى)، وتدلُّ على نظرٍ وإبصارٍ بالعين أو القلب[1]، ورأى إذا تعدّى إلى مفعولَيْن؛ اقتضى معنى العلم، فالرُّؤيةُ إدراكُ المرئيِّ بحاسَّةِ البصرِ أو بالفكرِ والعقل[2].

و(ألم تعلم): أصلها من (علم)، ويدلُّ على المعرفةِ والإدراكِ، عَلِمه يَعْلَمُهُ عِلْمًا: عَرَفَهُ حَقَّ المعرفة، والعِلْمُ: إدراكُ الشَّيء بحقيقته[3]، والعِلْمُ هو الاعْتِقادُ الجازِمُ الثّابِتُ المُطابِقُ للواقِع[4].

وفي مواضعَ كثيرةٍ خاطبَ سبحانه نبيَّهُ ﷺ بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ [البقرة: 243] عن أشياءَ لا يمكنُ رؤيتها بالعينِ، كما في قوله تعالى مثلًا: ﴿*أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ﴾ [البقرة: 243]، وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [المجادلة: 7]، و﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦﴾ [الفجر: 6]، و ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١﴾ [الفيل: 1]، والرُّؤيةُ تكونُ بمعنى رؤيةِ العيان، وتكون بمعنى رؤيةِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رأى).
(2) الراغب، المفردات: (رأى)، والفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز: 3/ 116.
(3) الراغب، المفردات: (علم)، والفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز: 4/ 88.
(4) المناوي، التوقيف، ص: 246.

القلب، وذلك راجعٌ إلى العلمِ، والمعنى هنا في هذه الآيات: ألم تعلم؟ وإنَّما جازَ إطلاقُ لفظِ الرؤية على غير المعاينة؛ لأنَّ النَّبيَّ ﷺ صار يُصدِّقُ إخبارَ اللّهِ تعالى إيّاه كالناظرِ عيانًا، والمعنى: ألم تعلم علمًا يقينًا متاخمًا للمشاهدة[1]؟ أيْ: ألم تعلم علمَ اليقين، وكأنَّك قد رأيتَ ما يُخبركَ به اللّه، وكأنَّ العلمَ بالنسبة لخبرِ اللّهِ يجبُ أنْ يكونَ أصدقَ ممّا تراه العين؛ لأنَّ العينَ قد تكذبهُ، والبصرَ قد يخدعه، ولم يخاطبه ربُّه بألم تعلم؛ ليدلَّك على أنَّ ما يخبركَ اللّهُ به غيبًا عنكَ أوثقُ ممّا تخبركَ به عينُك مُشاهَدًا لك[2]، فتركيب (ألم ترَ إلى كذا) إذا جاءَ فعلُ الرؤية فيه متعدّيًا إلى ما ليس من شأنِ السامعِ أنْ يكون قد رآه؛ كان كلامًا مقصودًا منه التحريضُ على علمِ ما عُدّي إليه فعلُ الرؤية[3]، كما أنَّ التعبيرَ بـ (ألم ترَ) فيه معنى التعجيب والتعظيم[4].

والحاصل أنَّ في التعبير بتركيبِ (ألم تر) معانيَ زائدةً على قوله: (ألم تعلم)؛ إذ يشملُ الإبصارَ والمشاهدةَ بالعين، كما يشملُ الاعتبارَ بالقلب والتفكُّر بالعقل، بينما تركيب (ألم تعلم) يدلُّ على الإدراكِ والمعرفةِ، ولا يدلُّ على الرؤية البصرية، وكأنَّ (ألم ترَ) هي عبارة عن جملتَيْن: (ألم تعلم كذا، وتنظر إليه)، بالإضافة إلى أنَّ (ألم تر) فيه تحريضٌ على علمِ ما عُدي إليه فعلُ الرؤية مع التعجيبِ والتعظيمِ.

(1) الواحدي، البسيط: 4/ 307، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 218.
(2) الشعراوي، تفسير الشّعراوي: 2/ 1122، 4/ 2304، 17/ 10288.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/ 476.
(4) الواحدي، البسيط: 4/ 307.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الخامس والثلاثون،
سورة الحَجّ من الآية 51 إلى سورة المؤمنون الآية 63
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الخامس والثلاثون، سورة الحَجّ من الآية 51 إلى سورة المؤمنون الآية 63
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 35 ، 804 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-77-8
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 35 : المجلد الخامس والثلاثون، سورة الحَجّ من الآية 51 إلى سورة المؤمنون الآية 63.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-77-8
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-7984898 بتاريخ 2024/11/14م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»